المحراب

بقلم البروفيسور
ر.ب. سارجنت

ترجمة الدكتور
يحيى الجبوري
أستاذ بقسم اللغة العربية

إن أصل كلمة « محراب » (١) غامض بعض الشيء . وتستعمل في الإسلام خاصة في قبلة الصلاة ، والمادة في « دائرة المعارف الإسلامية » (٢) تتناولها بهذا الشكل فقط ، ومع ذلك فإن هذا الاستعمال الفني للكلمة يبدو أنه تفرع من معنى أكثر بساطة وتعميماً ، وفي ملاحظة دليل نشوئها كاسم لقسم من المعبد فقد ظهرت دلالته إسلامية خالصة .

لقد نوقش « المحراب » من قبل نولدكه Noldeke (٣) وهوروفتش Horovitz (٤) ولاندبرك Landberg (٥) ، وكذلك نوقش – لصلته بالدراسات المعمارية – من قبل كريزويل Creswell (٦) وسوفاجيه Souvaget (٧) ، وقد اعتمدت هذه الدراسات

(١) يسعدني أن أعترف بديني للباحثين الذين تشاورت معهم في تحضير هذه المادة . لزميلي محمود الغول الذي أدين له بصورة خاصة لمساهمته الكبيرة جداً ، ولفحصه الكامل الذي عمله للمادة المخطوطة . وإني مدين أيضاً للطف البروفيسور كارل راثجنس الذي أذن باستنساخ مخطط هيكل حقة Hugga temple الشكل رقم ٢ .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية ، المواد : (قبلة) ، (مسجد) ، (محراب) .

(3) Neue Beitrage zur semitischen Sprachwissenschaft, Strassburg, 1910, p. 52, footnote.

(4) 'Bemerkungen zur Geschichte and Terminologie', Der Islam (Strassburg), zvl, 1927, 260-3.

(5) Glossaire datinoís, Leiden, 1920-42, 393 seq.

(6) Early Muslim architecture, Oxford, 1932, 1, p. 99.

(7) La mosquee omeyyade de Medine, Paris, 1947, 145 seq.

على مجموعة من المراجع والمصادر التي أعدت فحصها ، ولكن لم يكن غرضي أن أعيدها جملة in toto . لقد أظهر كل من هؤلاء المؤلفين بشكل مقنع أن استعمال قبلة الصلاة بالمعنى الاصطلاحي لم يكن مبكراً .

ومن جانبنا ، فالمؤكد أن المصدر العربي الأول والوحيد والمؤكد هو القرآن ، فقد جاءت الكلمة فيه خمس مرات فقط في السور : ٣٧/٣ ، ٣٩ ، ١٠/١٩ ، ٢١/٣٨ ، ١٣/٣٤ (*) .

ومرة أخرى فلسنا بحاجة أن نضيف تفسيراً إلى تفسير الدارسين السابقين ، بيد أنه من المهم في أكثر من حالة أن المحراب استعمل ليدل على قبلة الصلاة ، لأن النبي عني بوضوح أنه المكان المسقف حيث يجلس الناس .

يحتوي « تاج العروس »(١) مادة كاملة ومهمة في موضوع « المحراب » حيث يبدو من المناسب أن يجعل في الانكليزية كما هو في العربية تقريباً : « المحراب هو الغرفة(٢) والمكان العالي » وقد نقل الهروي هذا في كتابه « الغريب »(٣) رواية عن الأصمعي : قال وضاح اليمن(٤) :

ربة محراب إذا جئتها ... لم ألقها أو أرتقي سلّما

والمكان البارز في البيت : صدر البيت ، وأكرم مكان فيه . قال الزجّاج في قول الله تعالى(٥) : **(وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب)** .

(*) قلت : يشير المؤلف إلى الآيات : (كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا) آل عمران ٣٧ ، و (فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقاً بكلمة من الله وسيداً وحصوراً ونبيا من الصالحين) آل عمران ٣٩ ، و(فخرج على قومه من المحراب فأوحىَ إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا) مريم ١١ و (وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب) سورة ص ٢١ ، (يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات . اعملوا آل داود شكرا ، وقليل من عبادي الشكور) سورة سبأ ١٣ .

(١) القاهرة ١٣٠٦ هـ ١ / ٢٠٦ .

(٢) غرفة : جمعها غرف . تبدو صالحة أيضاً للتطبيق على بعض الأنواع من البيوت ، وهناك واديان حضرميان مقرونان بهذا الاسم .

(٣) بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ١ / ١٠٧ ، والملحق ١ / ١٦٦ وما بعدها .

(٤) ابن دريد : الاشتقاق ط . وستنفيلد (جوتنجن ١٨٥٤) ص ٤٧ يقرأ : (لم أدن حتى) لـ (لم ألقها أو) الرواية الأولى أفضل .

(٥) سورة ص ٣٨ / ٢١ .

« المحـــراب أعلى بيت في الدار ، وأعلى مكان في المسجد » ثم يقول : « المحراب هنا يشبه الغرفة » (١) .

أما فيما يخص الحديث النبوي ، فإن النبي أرسل « عروة بن مسعود » إلى قوم له في الطائف ، فأتاهم ودخل محراباً له ، فأشرف عليهم عند الفجر ، ثم أذّن للصلاة ، قال : « وهذا يدل على أن الغرفة يرتقى إليها » .

قـــال أبو عبيدة : « المحراب أشرف الأماكن(٢) » و « أنه أشرف المجالس التي يجلس بها المرء » .

قال الأزهري : « المحراب عند العــامة : هو مقام الإمام في المسجد » .

قال ابن الأنباري : « سمى محراب المسجد ، لانفراد الإمام فيه ، وبعده من القوم فيه . يقال : فلان « حرب » لفلان : إذا كان بينهما بعد وتباغض » وقيـــل : « المحراب الموضع الذي ينفرد فيه الملك فيتباعد عن النـــاس » .

في لسان العرب(٣) يقرر بأن : « المحاريب هي الأجزاء البارزة من الأماكن حيث يجلس الناس « صدور المجالس » . ومن هذا اشتق المحراب بمعنى المكان الذي يجلس فيه « المجلس » ؛ ومنه اشتق أيضاً محاريب غمدان (٤) في اليمن . المحراب هو القبلة . ومحراب المسجد هو أيضاً الجزء البارز ، وأعلى مكان فيه » .

وفي حديث أنس أنه كان لا يحب « المحاريب » ، يعني الجلوس في المحلات البارزة من المجلس حيث يجلس الناس « صدر المجلس » ويكون في مستوى أعلى من الآخرين ، يترفع على الناس .

وفي كلام الله : **(فخرج على قومه من المحراب)** (٥) قالوا : يعني من المسجد .

(١) لقد صير المفسرون هذه العبارة (إذ تصعد سور الغرفة) .

(٢) الفيومي : المصباح المنير ، القــاهرة ١٩١٢ ، ص ١٩٨ (أشرف) قد تعني (أكثر شرفا) .

(٣) لسان العرب ١ / ٢٠٦ طبعة جديدة ١ / ٣٠٥ .

(٤) قصر صنعاء الشهير ، الموقع الذي مازال معروفاً حتى اليوم .

(٥) سورة مريم ١١ .

المحراب : أكرم مجالس الملوك ، كما يقول أبو حنيفة .

قال أبو عبيدة : « المحراب سيد المجالس ، ولذلك فهو مقدم ، وهو أشرفها » يقول : « وذلك لصلته بالمساجد » (١) .

وعن الأصمعي : أن العرب تسمي القصر محراباً لشرفه ، وأنشد :

أو دمية صوّر محرابها   أو درّة سيقت إلى تاجر

وقد عني بالمحراب : القصر ، وبالدمية : الصورة .

وروي الأصمعي عن أبي عمرو بن العلاء قال : « دخلت محراباً من محاريب حمير فنفح في وجهي ريح المسك » أراد قصراً وما يشبهه .

وتضمن قول الله : **(من محاريب وتماثيل)** (٢) قال الفراء : « ذكر أنها صور الملائكة(٣) والأنبياء كانت تصور في المساجد ليراها الناس فيزدادوا إعتباراً » ، وقال الزجاج :

« هي واحدة المحراب الذي يصلى فيه » ، وقيل : « سمي المحراب محراباً ، لأن الإمام إذا قام فيه لم يأمن أن يلحن ويخطيء . . . » .

إن محاريب بني اسرائيل هي مساجدهم التي اعتادوا أن يجلسوا فيها ، كما كانت للتشاور في قضايا الحرب . وفي التهذيب : « حيث كانوا يجتمعون فيه للصلاة وما شابه (٤) » .

وشبيه بهذا رأي ابن الأعرابي : « المحراب هو المكان الذي يجلس فيه الناس ويجتمعون » .

والرأي الأكثر دلالة وأهمية – الذي يقتبس – هو رأي الزهري « المتوفي سنة ٧٤٢م » الذي عاش في نهاية العصر الأموي ؛ فهو يجعل المحراب في القبلة في نهاية المسجد ، ولكنه

---

(١) قارن بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ١ / ١٠٣ . ولد أبو عبيدة سنة ١١٠هـ / ٧٢٨ م .

(٢) سورة سبأ ١٣ . كانت هذه تزود سليمان بالجفان مثل الجابية وقدور الطبخ . المحاريب المزينة كانت في الأغلب أماكن حيث كان الضيوف يسمرون ، ومن وجهةنظر المكتشفات الأثرية الحديثة في جنوبي الجزيرة ؛ فمن الممتع أن نجد المفسرين يقررون أن عرش سليمان كان محمولا على أسدين ، في حين أن نسرين كانا في أعلاه .

(٣) اكتشف رأس ملك من رخام في حصن الرناد في تريم كان ضمن القصر الجديد مبنى في ذلك الموقع .

(٤) للأزهري المتوفي سنة ٢٧٠ هـ .

لم يطابقه بشكل إيجابي على الأقل مع القبلة ، لقد عرفه على أنه صيغة لعامة الناس بهذا المعنى ، فقد ظهر ليدل على أنه قد نشأ استعمالاً اصطلاحياً في هذه الفترة ، وكان المحراب مكاناً مرفوعاً حيث يجلس الناس ، وقد اقترن بمفهوم الشرف ، وفي هذا المجال ربما له علاقة بالجزء الطيني المرتفع من غرفة الاستقبال في البيت ، وقد رأيت ذلك في « ضالع » ، ويعرف هناك بـ « الديوان » ، وفي صنعاء بـ « الليوان » (١) ، ولكن في بيجان بـ « هداح » .

وينبغي أن يضاف بأن كلمة « قصر » التي حددت من قبل بعض الرواة المتقدمين بالمحراب ، تعني في حضرموت : طبقة من دار(٢) ، ولكني لا أرجح بالضرورة أنها كانت تستعمل هنا كذلك .

والسؤال في النتيجة يكون : وبعد ماذا كان يعني المحراب بالضبط قبل الإسلام ؟

يبدو لي أن انحدار الكلمة من الحبشية -- بسبب علاقتها بجنوب الجزيرة -- غير محتمل ، لأن الحضارة الحبشية كانت فطرية وثانوية .

لقد حاول ساليس دايجس Salis Daiches أن يربطها بالكلمة العبرية חֲרֵבוֹת في معنى القصر(٣) ، ودعم حجته بعدد من الاقتباسات من التوراة .

لقد أمدني زميلي « محمود الغول » ببيانات نافعة في الوقت الحاضر عن جنوبي الجزيرة قديماً حيث اقتبس بتوسع in exteso : « أن كلمة محرب mhrb جاءت مرتين في المخطوطات المعروفة لجنوبي الجزيرة ، إنها لم تعرف بالضبط لأي نوع من البناء ، أو المكان ، ولا لأي شيء تعود ، لأن الكلمتين كلتيهما لم تكونا معروفتين إلا بعد أن نقلتا إلى عدن .

المخطوطة الأقدم المعروفة بـ CIXH, 106 (BM55) يبدو أنها نشأت من « كوكبان » في منطقة « همدان » لأن اسم ذلك الموضع مذكور في المخطوطة حيث تقرأ :

---

(1) C. Rathjens and S. D. Goitein, Jewish domestic architect ure in San'a, (١) Yemen, Jerusalem, 1957, 73. See also p. 451 infra.

(٢) البنـاء والبنـاؤون في حضرموت Le Museon ٦٧ ، ١٩٤٩ ، ٢٨٤ . ربما في كتاب ابن المجاور : تاريخ المستبصر ، ط . لوفكرن O. Lofgren ، ليدن ٥١ -- ١٩٥٤ هناك صدى لهذا المعنى للقصر .

(٣) معنى كلمة חֲרֵבוֹת Jewish Quarterly Review, XX, 1908, 637—9.

٢ — ؟ / بره
٣ — و / وهشقرن / محــرن
٤ — كوكــبن

٢ — ؟ أوجدوا
٣ — وأنجزوا المحــراب
٤ — كوكبان

إن قراءة كلمة « محرن » محفوفة بالشك . يوازن د . هـ . مولر D. H. Muller كلمة « محرن » مع « محرمن » ، على أساس من وجود تغير حرف صحيح ، وترجم الكلمة على أنها « حرم » . إن ناشر المجموعة آثر ترجمة الكلمة بـ « حصن » أو « برج » مبيّناً ذلك وفقاً لجزيرة الهمداني(١) وصف الـ « كوكبان » على أنه قصر ، أو حصن ؛ لذلك فإن الناشر اشتقها من الجذر « حرب » ، مقرراً أن تفسير النص على أنه « حصن » يناسب تحصين كوكبان جيداً . هذا التفسير — نوعاً ما — يبدو أن له سنداً في التاج « قارن الاقتباس السابق » .

المخطوطة الثانية جاء فيها « محرب » في مجموعة كايكي مونجرجي Muncherjee Kaiki : أن قراءة « محربه » (R. 4108, 3) مرممة جزئياً ، ولا تضيف هذه المخطوطة لمــا قدمتــه المخطوطة CIH, 106 شيئاً .

في الواقع أن المخطوطة الثانية كانت قد عهدت من قبل شخص ما برتبة « مقتوى » الملك ، ورتبة مقتوى هذه قد أحيت قراءتها ، ربما لم تكن دليلاً أكيداً على حجم الـ « محرب » فيما إذا كان تحصيناً ، أو شيئاً آخر لكتابة أكثر خصوصية .

ونص آخر : « تحربت » thrbt وقع في عدد من المخطوطات(٢) .

موردتمان Mordtmann وميتوح Mittwoch يرفضان هنــا اقحــام ما استعمل في

---

(١) صفة جزيرة العرب ، ط . د . هـ . مولر ، ليدن ٨٤ — ١٨٩١ ، ١ / ١٠٧ ، ١٩٥ .
(٢) قارن موردتمان وميتوج
J. H. Mordtmann and E. Mittwoch, Sabaische Inschriften, Hamburg, 931, 221-3.

مخطوطة CIH, 357, 12 أصلاً ، ذلك أن الكلمة فيها أي شيء يستعمل في الحرب(١) ولقد أنهيا مناقشتهما بقولهما :

---

(١) قارن R, 4632, حيث صيرها م . هفنر M. Hofner إلى ' Kampfszene ' لقـد جهزني محمود الغول بمادة إضافية لـ« تحرب » : في المخطوطة CIH, 537, 10-12 تقرأ : (١٠)-/ أحمده / بهر(١١)- أيت / هرٌى / لهم (١٢) - و / بتحربن .

ترجم مورتمان وميتوج : « وفي الامتنان له للرؤيا التي أراهم إياها » . لقـد قارنا مع هذه المخطوطة مخطوطتين أخريين ، وفيها قرابين شكر على ما وهب من رؤيا ، في إحدى الحالات قد شوهدت الرؤيا ، أو أوحى في : « ب نعمن / و ألم » هيكلان لـ « عثتر » ، وفي الأخرى : « بمحرمن / ذموم » ، وفي هيكل : « أوم » .

وقـد علقوا على هذه جميعها : « في الحالات الثلاث جميعها فهي ذات علاقة بالتحنث Incubationsorakel الرؤيا خلال التقهقر » أكثر من مخطوطة تذكر وحي الرؤيا لتقارن باؤلاء RES, 3929, 5. حيث تقرأ : حجن / قهرأيهو / بسنتو .

لتكون ترجمتها : « بنـاء على ما أراه له في سنته » . قارن : « سنت snt » بـ « سنة » العربية ، كما في القرآن – سورة البقرة ٢٢٥ – : (لا تأخذه سنة ولا نوم) .

وهـكذا ، فن هذه المخطوطات ندرك أن هذه الرؤى كانت توحي في الهياكل أثناء النوم ، وفي « تحرب » . إني لا أظن بأن « تحربن » في المخطوطة CIH, 357, 12, يمـكن أن تتعادل مع هيكل أو مع سنة ، ولكنها مظهر آخر ، أو ظرف يشترك مع طقس أو أسلوب لمشاهدة الرؤى .

مع هـذا الشكل للتحنث يستطيع المرء أن يقارن حالتين تمارسان في الإسلام : صلاة الاستخارة ، والاعتكاف في المسجد .

في الأولى يدعو المرء عون الله بوساطة الهامه إرادته أن يدله على القرار الصحيح الذي يجب أن يتخذه ، وفقاً للممارسات غير التقليدية unorthodox ، ويقوم بصلاة خاصة ، وبعدها يذهب لينام مع نظافة تامة للجسم والمكان ، وقد تتخذ أحيانا في المسجد نفسه ، آملا أن يلهم الرؤيا حين النعاس ما طلب أن يعرف . « قارن دائرة المعارف الإسلامية مادة – استخارة – » .

في الاعتكاف يعتزل المتعبد في الأيام العشرة الأخيرة من رمضان في المبني التابع للمسجد ، يلزم نفسه بنظام قاس من الزهـد ، والمعتزل منصل كلياً بمراقبة ليلة القدر ، التي يفترض أن تقع في إحدى الليالي العشر الأخيرة من ذلك الشهر . من الممكن أن توازن « تحربن » كرياضة مع الاعتكاف ، ويمكن أن يوجد السند اللغوي في البيـان الذي يزعم أن « محراب المسجد » إنما سمي كذلك لأن الإمام يكون فيه وحده ، وأن « المحراب » هو المكان الذي يكون فيه الملك وحده « راجع التاج السابق » .

إن معنى الاعتزال أو التوحد يقرن تماماً بالمحراب في القرآن ٣ / ٣٧ ، ٣٩ ، ١٩ / ١١ .

إني أتناول « تحربن » هنا ، إذا فهمت على أنها حدث ، اسم مشتق من الصيغة الخامسة . وهكذا من الممكن أن تكون اسماً وصفياً مشتقاً ، في معنى لإنجاز شيء في ، أو يعمل مع « محراب » . في هذه القرينة ينبغي أن ينتبه بأن المحراب العربي من الممكن أن يستعمل خيمة « ممـر ضيق » ، ذلك لأن النبي جعـل اعتكافه في خيمة داخل المسجد .

= ومع ذلك فإذا أمكن إتخاذ « تحربن » لتدل على مكان ، فمن المحتمل بعد ذلك « تفعال » مثل كلمة « تمثال » العربية ، كما يقترح الأستاذ بيستون Beeston « قارن الصحاح مادة – تقر – يسوى الصخور ، ومن المحتمل من – تنقار – جذر نقر » .

وكاسم حقيقي « تحرب » ممكن أن يعني : « مكان الاعتزال » ، وفي هذه الحالة : أما أن تكون صومعة في معبد ، أو من الممكن حقاً خيمة ، أو شيئاً آخر من البناء .

الصيغة الأخرى « تحربت » تبدو من الراجح أن تكون نوعاً من البناء . (GL., 738 (RES, 4632 كان بناء مطموراً في جدار في طارمة السقى ، كان فوقه تمثال يصور رجلا بيده اليمني فأس ، وفي يده اليسرى ترس ، وعلى جانبيه كلبان نشيطان .

يقــرأ النص :

١ – مرطــدم / ابنــه / رطــدم / بنى
٢ – (ذ) يهرحب / شمو / تحربت
٣ – (ن /) لوفيهم

ترجمــه ماريا هفــنر Maria Hófner :

١ – مرطدم وولده رطدم من قبيلة .
٢– ذ – يهرحب قد شيدا هــذا المشهد الحربي .
٣ – لأجــل أمنهم .

ترى الدكتورة « هفنر » أن الكلمة « تحربت » قد فسرت بحلية معمارية للتمثال ، وأن الكلبين يمثلان الأعــداء ، ولكني أقترح إذا كان جوسق السقى حيث قد بنى النقش هو بناءأثري ، وإذا كان النقش جزءاً أصلياً من البناء ، فإن « تحربت » تعود إلى الجوسق نفسه ، والكلمة سوف تحمل بعد ذلك معنى « غرفة » أو « جوسق » ، ومن المحتمل لأجل المشاهدة – وهذا يعزز كذلك بالمخطوطة ,RES, 3512 ، ولسوء الحظ فإن النقش قد أصابه تلف كثير – أن الكلمة هي في ما يقدم للهيكل ، في المتحف البريطاني ، ويبدو أنها تقدم على أنها صلاة شكر ، لأجل تشييد بناء « تحربت » .

السطر الثالث يقرأ :

/ ذ ء معــدم / بموقر / ذ تحربهن / بطلم ،

لفاكهة طازجة ، أو تمر ، لأجل أن تقدم – أو ربما وجبة طعام ، وليمة – لجوسق الصخر .

أم عدم : قارن « معد » العربية : خضرة طرية ، فاكهة طازجة ، أو تمر ،

موقر : قارن « وكرة » العربية ، « وكر » ، طعام ، وجبة ، تعطى أو تصنع بمناسبة الانتهاء من البناء ، الفعل : وكر .

طلم : قارن كلمة سلم العربية جمعها : سلام ، و سلم ، حصاة في لهجة حمير . كأنه مبادلة بين حرف (س) وحرف (ط) إنه يدل بصورة كافية على أن هذه الكتابة هي في الحميرية ، اللهجة التي عرفت باستبدال حرف (س) بحرف (ط) . م . غ .

بقولهما : « إن الكلمة ــ كما يعتقد ريكمانس Ryckmans كذلك ــ من الصعب أن تكون أي شيء يعمل مع الحرب ، ولكنها فضلاً عن ذلك تشير إلى أداء عبادة : شعائر ، أو بعض الأشياء المرتبطة بالشعائر ، وإنها لتذكر المرء بالمحراب الإسلامي » .

إن المصادر ذات الصلة بالموضوع ترى أن كلمة « محراب » كانت معروفة في العربية قبل الإسلام ، وأن هذا لم يكن ليثبت حقيقة ، ليكون أي ترابط مباشر مع الشعائر . إنه لمن المناسب أن نورد إيضاحاً جديداً لمعنى المحراب ، حيث يبدو أنه يلقى ضوءاً مختلفاً نوعاً ما على معناه الأصلي .

المسجـــد الحضرمي :

أثناء محادثتي مع محدثي الحضرمي الجليل الشيخ « عبد الله رحيم بافضل » استعمل عبارات غريبة نوعاً ما ــ في تسمية أجزاء من المسجد ــ استرعت انتباهي . في اجابته على استفساراتي الكثيرة رسم لي تخطيطاً بسيطاً للشكل (١) ورسم فوقه بخط غير متقن صورة مسجد ، ولو أنه لم يقصد مسجداً معيناً ، ولابد أن يكون لرحيم حس دقيق ، في معرفة تصور تخطيط المسجد ، لأنه قد أمضى أكثر حياته في ــ أو حول ــ مساجد « تريم » وغيرها . إنني لم أصادف أحداً مثل هذا الشيخ في كمال الحكمة الدينية .

في النهاية العليا من الرسم قاعة مسقفة ، مختلفة في الحجم حسب الحاجة ، مسدودة من كافة الجوانب ومجهزة بسقف وأبواب ونوافذ ، وتسمى هذه القاعة بـ « الحمام » أو « كنين » أو « المكان الكنين » مشتقة من الجذر « يكن » الإنسان ، أو « يكنّ » في معنى : يغطي(١) . إن عبارة « حمّام » متأتية صراحة من معنى الدفء ، لأنه خلال الشتاء يكون البرد قارساً في حضرموت في الصباح الباكر وبعد الظلام ، وفي الواقع . . كثيراً ما يجد المرء في بعض الأحيان أكواماً من جذوع النخيل قرب المسجد ، تستعمل في تسخين الماء لأجل الوضوء قبل الصلاة ؛ فالحمـــام لم يكن معروفاً بعد في المصادر المتقدمة ، مثل كتاب « الجزيرة »

---

(١) استرعى محمود الغول انتباهي إلى العبارة الآتية من « تاج العروس » قديمة ط١٠ / ٣٢٣ : « والكنة ــ بالضم ــ جناح يخرج من حائط وشبهه ، أو هي سقيفة تشرع فوق باب الدار أو ظلة تكون هناك ، أو مخدع أو رف يشرع في البيت ، أو كالصفة بين يدى البيت ، عن أبي عمرو » .

للهمداني ، وعلى أية حال لقد وجدت في « الجوهر الشفاف »(١) المؤلف قبل سنة ٨٥٥ هـ ١٤٥١ م ذكراً للحمامات في الشحر بهذا المعنى الخاص ، ويشير « المشرع الروي »(٢) إلى بناء حمام في مسجد « تريم » نحو سنة ٨٠١ هـ / ٩٨ — ١٣٩٩ م .

لدى امتـداد الحمام بهذا المعنى لم يدونها « لين » Lane ، ويبدو أنهـا لم تكن معروفة للمعاجم القديمـة .

في مقابل الحمام باحة مسقفة ، نوع من الرواق يعرف بالـ « محاريب » ، مفتوح من جانبه الآخر على فناء . إن المحراب الواحد كما قرره الشيخ « رحيم » هو : صف حق السواري ، أي : صف من الأعمدة ، على طول المسافات بين كل عمود ولكنه يبدو أن يكون مستعملاً لكل هذه الأجزاء من المسجد . إن هذا المعنى ليس جديداً بل مؤكداً بسيرة مشايخ الخطيب(٣) كتاب من القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي حيث يتحدث عن : العمود المنصوب في آخر صفّ المحاريب . ذلك أن كلمة محراب ربما كانت قد استخدمت كجزء من المسجد الذي له صف من الأعمـدة ، وإني استدل من « الجوهر الشفاف »(٤) بأن للمسجد : محراب شرقي ومحراب قبلي ، وأظُن بأن هذا ينبغي أن يفهم على أنه رواق مسقف من الجانب الشرقي ، والجانب الغربي من ساحة المسجد . إن المسجد الحضرمي له — إلا في

---

(١) مصور في مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية . القسم الثاني حكاية رقم ٤٠٧ .

(٢) محمد بن أبي بكر الشلي : المشرع الروى ، ط القاهرة ١٣١٩ هـ ١ / ١٤١ . يناقش الكتاب المذكور ١ / ١٣٦ — ١٣٧ تشييد مسجد آل با علوى المعروف سابقاً بمسجد بني أحمد في « تريم » من قبل سيد محمد بن على خالع قسم المشهور . كان قد بنى من صلصال جيد من بيت جبير ، طابوق غير مفخور (لبن) نقل إلى تريم على واسطة تعرف بـ « الجراديم » ، وهي واسطة نقل لها عجلات تجرها الثيران والبغال ، وتدعى أيضاً العربة ، وكان قد جدد بناوٌه من قبل « عمر المحضار » سنة ٨٠١ هـ / ٩٨ — ١٣٩٩ م ، وأضيفت المنارة بالطراز المحلى ، وليست كمنائر المدن المقدسة ذات الطراز التركي ، ثم بنى له « محل كنين » للمصلى في أيام الشتاء بالقرب منه بالجانب الشرقي ، وقد جعل وقفاً كسجد معروف لهم باسم حمام ، على اعتبار كونه « كنينا » ، وقد عملت بجانبه أحواض : برك ، حيث يسخن بها الماء ، وهم يدعونها : حماما لأن الحمام مشتق من الحميم بمعنى : الماء الحار ، لأنه ليس حماماً فارسياً « أعجمياً » ، وفيما يختص بالصلاة حيث التحريم تحدر إلينا ، ثم يقتبس المؤلف حديثين في هذا الموضوع . هذه العبارة ليست واضحة جداً على أنها موضع الكنين تظهر وكأنها كانت قد بنيت على الجانب المعاكس للقبلة ، وربما أضيفت أمام المسجد .

(٣) مواد تاريخ جنوب الجزيرة ، مجلة مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية ٣ / ٢ ١٩٥٠ ص ٣٠٥ BSOAS .

(٤) مواد تاريخ جنوب الجزيرة ، مجلة مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية ٣ / ٢ ١٩٥٠ حكاية رقم ٣٢٨ .

النادر ــ مثل هذه الأعمــدة المصفوفة في جمع جهات الساحة الأربع ، كما أتذكر من الجامع في « تريم » الذي له اسم « مدين » الرائع ، ومعناه تخميناً : مكان الدين . وعلى أبواب مبنية من هذا المسجد ــ من الجانب الشرقي ــ أطلق « رحيم » اسم « مفقر » جمعها : مفاقر ، ويمـكن أن يطلع على صورة لمثل هذا المسجد في كتاب حضرموت . تأليف د . فان دير مولن D. van der Meulen وفون وسمن H. von Wissman (١) الوجــه العريض منها ، من ذاكرتي عن الغرف يجب أن تقع تجاه القبلة ، وتقع أمام المحراب الساحة المكشوفة « الصحن » ، وتسمى في حضرموت « ضاحي » ، أي المكان المتعرض للشمس ، على النقيض من « الكنين » المغطى . إن سيرة مشايخ آل باعبّاد (٢) تشير إلى « ضاحي » مسجد شبام : ساحة مسجد شبام .

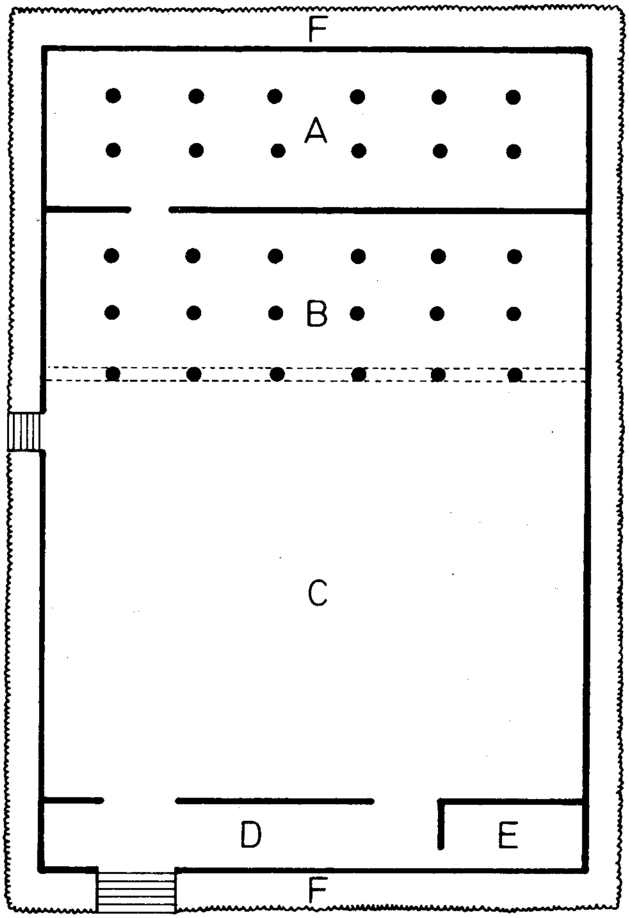
ويدعى الممر الذي أمام الساحة المكشوفة « المجاز » ، ويؤدي إلى « الحواني » ــ مفردها جابية ــ أو مكان الوضوء حيث ــ كما أتذكر ــ يعتبر غير نظيف ، والجزء الذي قلما يكون لائقا في المسجد ، هو محل الوضوء . يتحدث « الاكليل الوقاد » (٣) عن : مجاز جابية مسجد الحوقة ، في شبام حوالي النصف الأول من القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي ، وهكذا ، فإن هذا على أية حال ليس نصاً حديثاً .

المنارة ــ ولو أنها بعامة غير ثابتة ــ تكون في الزاوية الشمالية الشرقية في « الركن الشرقي النجدي » وهي في الواقع من الممكن أن ترى في الصورة لغرفة المسجد في حضرموت ، بيد أن « رحيما » يقرر بأن المنائر تكون قبل كل شيء في منتصف الجانب الشمالي من المساجد ، وقد انقرض سريعاً اولئك الذين يخططون للمنارة أولاً في الزاوية الشمالية الشرقية من الجامع . في هذا التقليد المقدس جداً ، عادة هناك ما يستحب أن يوجد ــ كمغزى ضمني ، ولـكن يبدو أنه قد نسي .

(١) حضرموت ، ط ليدن ١٩٣٢ مقابل ص ١٩٢ .

(٢) الإكليل الوقاد ، قارن « مواد تاريخ جنوب الجزيرة ، ٢ » المرجع السابق ١٣ / ٣ ، ١٩٥٠ ، ٥٨٩ . كنت قادراً على فحص أوراق من هذا العمل في حريضة وفي سيوون في ١٩٥٤ .

(٣) المرجع السابق نفسه .



شكل (١)
المسجد الحضرمي .

(A) الحمام أو المكان الكنين : القاعة المغطاة . (B) المحاريب ، مفتوحة على قاعة المسجد .

(C) الضاحي أو الصحن : الفنـــاء المكشوف من المسجد . (D) المجاز أو الممـــر .

(F) العصبي ، أو رصيف صخري حيث يشاد عليه المسجد . (E) الجوابي : أحواض للوضوء .

ملاحظـــة : المنـــارة أو المنائر لا ترى ، لـكن بما أن المنارة تكون عادة في الزاوية الشمالية الشرقية في هذه الأيام ، فينبغي أن توضع في مكان ما في منطقة من الساحة المؤشرة بحرف (E) .

أما القبلة فينبغي أن تكون في مكان ما عند الحرف (A) . المساجد الحضرمية تواجه قليلا فقط من الشمال الغربي ، ولهذا السبب يعرف الغرب بالقبلي .

في الجوانب الغربية من الجوامع أو المساجد الجامعة ، وكذلك الجبّانة التي هي مسجد في موضع الدفن(١) ، هناك عادة باب صغير لصلاة العيد وللصلاة على الميت . ويوجد في العادة أيضاً باب للخطيب ليدخل دون أن يجتاز خلال المصلين .

من الممتع ملاحظة أن صلاة الاستسقاء تقام في المسيال أو بالأحرى في كل مكان . جرت العادة في « تريم » أن يمسك المجرى حيث يمر خلال ثلاث مقابر .

المسجد مثل البيت العادي ، يبنى على الأساس : رصيف من حجر ، أعلى من مستوى الأرض بعدة أقدام على جانب واحد ، وأحياناً على شتّى الجوانب ، وتشكل هذه التأسيسات وراء الجدران نوعاً من الأرصفة تعرف في تريم بـ « العصبي » ؛ وتفسر على أنها « دكة » أو « رقدة طويلة » والدكة : هي الكلمة الشائعة لهذه العتبة أو الرصيف ، وأتذكر أني سمعتها تستعمل فعلاً للغرض نفسه بعيداً عن الجزيرة العربية ، كما في مدينة إقليم في جنوبي كانوا في نيجيريا (٢) . يتحدث « الاكليل الوقاد » في الفترة بين سنة ٨٣٤ هـ و سنة ٨٣٧ هـ / ١٤٣٠ – ١٤٣٤ م عن « العصبي » لجامع في الغرفة ، حيث – كما لاحظنا – موضح في حضرموت .

وفي « حريصة » أيضاً نسخة من « الإكليل الوقاد » تتحدث عن مسجد في سنة ٨٣٩ هـ ١٤٣٥ م : « وعاد نورته بقية والعصبي » و : « مازال جصه باقياً وكذلك العصبي » . وقد قيل لي بأن « المنصب » الذي على قبر الشيخ عثمان في عدن هو « الافريز » نفسه الذي كان يسمى « البغلة » .

المحراب:

إن المصادر الحضرمية تقتبس حتى الآن قصة غريبة لاستعمال المحراب في حضرموت وهي متأخرة نسبياً ، ولكن امرأ القيس يعزو إلى « محاريب الأقوال » الأقيال هم أمراء العربية الجنوبية كما هو معروف(٣) .

(١) نوقش في (مقابر تريم) لو مسيون Le Muséon ٦٢ ، ١٩٤٩ ، ١٥٨ .

(٢) نوقشت كلمة دكة في (صك بيت يهودي – عربي من حبان) مجلة الجمعية الملكية الآسيوية ١٩٥٣ ص ١٢٩ . الشرجي : طبقات الخواص ، القاهرة ١٩٠٣ ، ص ٧٧ يشير إلى دكة البيت .

(٣) دي سلان : ديوان امرئ القيس ، باريس ١٩٣٧ ص ٥٢ / ٣٣ .

السيد علاّوي بن طاهر(١) يروي بأن الزاهد الشيخ « ســالم با فضل » – توفي ٥٨١ هـ ٨٥ – ١١٨٦ م والذي أنشأ مدارس في هجر – قد ذبح ظلماً وعدواناً ، حين كان في محرابه يقرأ السور .

يتحدث الشرجي(٢) عن وليّ على أنه : « جالس في محراب » مدرسة . إن الشرجي(٣) على أية حال يستعمل المحراب بوضوح تام ، بمعنى القبلة أو المكان الذي تكون فيه القبلة . لقد دهشت حين علمت أخيراً بأن الإمام في عدن يجلس فعلاً في المحراب حينما يلقي الخطبة ، لأن المنبر يحرّك إلى داخل المحراب ، والمحراب كاف لأن يتسع له .

في مساجد « مومباسة » حيث حضرت في مسجدين أو ثلاثة درس المساء « درسه » ، إن المدرس لا يجلس في المحراب ، ولكن أمامه ، وبقية أولئك الذين يحضرون الدرس « درسه » ينتظمون في الغالب في مواجهته ، ومن الممتع أيضاً أن في « مالنــدي » في « كينيا » يعمل بخور النذور « نذيرة » في قبلة المحراب . وهذا مثبت في القبلات المتهدمة لجيدي Gedi التي نقب عنها ، فقــد أراني جيمس كيركمان James Kirkman نــذوراً من هذا النوع عملت حديثاً على أنها شكل من أشكال الصدقة . ويبدو أن كلمة « محراب » من الصعوبة أن تعرف هنا ، ومن الواضح حقاً أنها لا تستعمل اعتيادياً في الكلام السواحيلي مطلقاً ، ولا من قبل المتكلمين بالعربية في الساحل ، مع أن الكلمة قد أصبحت اسماً دينياً ، ومجازاً مألوفاً في المعاجم السواحيلية ، وهذا – كما أظن – يكون تفسيراً فقط لحقيقة أن المفردة العربية في السواحيلي وفي العبادة الإسلامية مأخوذة مباشرة عن العرب الشوافع في حضرموت ، وربما بقدر أقل من اليمن ، حيث ينبغي أن يكون الاستعمال الشائع لكلمة « محراب » لشيء ليس مطابقاً مباشرة لكلمة القبلة .

هنالك مراجع ليست قليلة عن المحراب في الفترة الإسلامية الأولى ، حيث تبين أنها ما كانت تستعمل المحراب للكوّة (*) ، ولكن لشيء أكثر اتساعاً .

---

(١) عقود الألمــاس ، سنغافورة ، ١٩٤٩ ، ٢ / ٧٥ .

(٢) المصدر السابق ١٨٠ .

(٣) المصدر السابق ١٥٤ .

(*) المراد بها ترجمة لكلمة niche وهي الكوة غير النافذة في الحائط حيث يقف فيها الإمام في الصلاة .

في دمشق في الجامع الكبير القسم المعروف بـ « محراب صحابة الرسول » ربما كانت مساحته بقدر حائط(١) . يتحدث الكندي(٢) عن قبلة المسجد على أنهـا مكان يتعبد فيه المصلي ، ويمكن أن تدل هذه العبارة الأخيرة أيضاً على معنى أكثر من « كوة » في البداية .

يتحدث ابن عبد الحكم(٣) عن شخص قبل سنة ٨٩ هـ / ٧٠٧ م « ركع في المحراب » .

يعزوها ابن قلانس(٤) إلى محراب المصلّى ويستعمل كلمة « محاريب » في أسلوب يتضمن عدم كونها كوى الصلاة ، ولكنها أجزاء من المسجد يمكن أن يقف فيها ويصلي مجموعة من الناس . وهناك مراجع متقدمة لمحاريب داود وأنبياء آخرين في القدس تترك إنطباعاً بأنها كانت نوعاً من المصلّى (٥) .

يستشهد لامانس (٦) بحديث رواه السيوطي ، غير موثق وضعيف السند : « اتقوا (٧) هذه المذابح . يعني : المحاريب » . لقد اقترح سابقاً من قبل باحثين معينين بأنه كان محظوراً أن يستعمل المحراب – حيث يفهم في معنى صلاة المحراب – لأنه كان مرتبطاً بالديانة المسيحية ، ومع ذلك فإن هناك شعيرة بمعنى هذا الحديث في التاج (٨) : « المذابح – أماكن

(١) كاترمير : تاريخ سلاطين المماليك ، باريس ١٨٣٧ ، ٢ الذيل ص ٢٨٢ وما بعدها . قارن الكتاب السابق ١ / ١٦٤ يقتبس نصاً يعود إلى الجامع الأموي يذكر أن : المحراب فيه ثلاث مقصورات . يستشهد « كاترمير » بعدة مراجع عن المحراب في الجامع الأموي حيث يظهر أن المقصورة احتوت أو جاورت محراباً . ربما كانت العبارة المستشهد بها تعني أن المحراب كان واسعاً جداً بحيث كانت أمامه عدة مقصورات . إن المادة التي اقتبسها في هذة الدراسة على أية حال متأخرة نوعاً ما ، عدا فيما يخص اقتراحه بأن اسم محراب ربما يكون مخصصاً من كل المقصورات إلى القبلة أمامه .

(٢) أ . ر . كست A. R. Guest : حكام مصر وقضاتها . لندن ١٩١٢ ص ٦٢ .

(٣) تاريخ فتح مصر ، ط توري ، نيوهافن ١٩٢٢ ص ٢٣٨ .

(٤) تاريخ دمشق ، ط أميدروز ، ليدن ١٩٠٨ ، ٩ .

(٥) الطبري ، تاريخ ، ط دي غويه . ليدن ١٨٧٩ – ١٩٠١ ، ١ / ٢٤٠٨ . ابن حوقل ، المسالك والممالك ، ط دي غويه . ليدن ١٨٧٣ ، ص ١١٢ وما بعدها .

(٦) لامانس ، زياد بن أبيه Rivista degli Studi Orientali ٤ / ١٩١١ – ١٩١٢ ، ص ٢٤٦ .

(٧) إني أجعل « اتقوا » هنا – وفق نظريتي – ليست مشتقة دائماً من الجذر « وقى » بل أحياناً من الجذر « نقى » ، وهذا يعني – كما هو في العرف القبلي في جنوب الجزيرة هذه الأيام – : التطهير ، وأظن أن هذا التأويل سيجعل المعنى هنا أفضل .

(٨) تاج العروس ، طبعة قديمة ١ / ٧٥٩ .

الذبح – هي محاريب ، سميت كذلك بسبب القرابين ، والمذابح : هي المقاصير في الكنائس. جمع مقصورة ، ويقال : إنها المحاريب والمذابح » . لكي يفهم المحراب بمعنى المقصورة أو الهيكل تلقي أضواء مختلفة جداً على التحريم .

إن رواية المسلمين التقليدية عن تطور المقصورة معروف ، لا يبدو لي بأن أحداً يحتاج بالضرورة أن يبحث عن التشابه في الكنائس المسيحية في سورية . ليس هنـاك شك في أن النبي صلى عند القبلة في نهـاية المساحة المسقوفة في المسجد الأول في المدينـة ، أعني أنه ينبغي أن يكون قد صلى وسط الأعمدة التي تسند سقف المسجد ، لذلك فإن موقف الإمام في الصلاة كان ثابتاً ، وليس من الصعب أن يثبت نوع من القضبان المتصالبة ، أو حاجز لربط هذه الأعمدة سوية ، وهذا يشكل مقصورة .

وبتغيير بسيط تمامـاً ، بهذا الابتداع الطفيف الذي عمل من قبل « معاوية » استطاع أن يجتذب معارضة العرب المحافظين الشديدي التدقيق في الجزئيات الذين يحتاجون إلى تجربة ومراس كي يدركوا بوضوح .

وهكذا فإني لا أرى في هذا الحديث مهاجمة للمحراب في معناه الأخير على أنه كوة الصلاة ، بل على أنه استعمال للمقصورة أدخل من قبل معاوية في دمشق . إن الحديث ضد الأمويين من ناحية أن المقصورة استحدثت لتكون بدعة معاوية ، حقاً ! إنه أكثر الحكام « ديمقراطية » إلا أن العبادة في الواقع كانت شديدة المحافظة .

ومع أنها كلمة عربية قديمة ، فإنها لم تكن بلا صلة وثيقة بالموضوع ، ذلك أن المحراب لم يظهر في فهرس فنسنك Wensinck للحديث(١) ، ومن هنا ، فإن الاستنتاج يمكن أن يكون بأنه ليس له مغزى للعبادة . . يمكن أن يكون مصطلحاً فنياً فقط في مفردات فن العمارة .

يتحدث « ابن قيس الرقيات »(٢) في بيت يخاطب فيه الخليفة الأموي « عبد الملك بن مروان » عن دار خربة أصبحت مهجورة : « كما أقوت محاريب دارس الأمم » . ربما

(١) A. J. Wensinck, Concordance de la Tradition musulmane, Leiden, 1936—

(٢) رودو كناكس ، ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات ، وين ١٩٠٢ ص ٧٤ .

كانت هذه « كليشة » في أسلوبه ، لأنها قد جاءت في ديوانه مرة أخرى(١) ، ويجيء الشرح : « المحاريب : مساجد – أماكن السجود – مصنوعة من حجارة منقورة ومنصوبة على وجه الأرض ، ولذلك فإنها تبقى ، وهي نصائب . يقرر « التاج »(٢) : إن المساجد حجارة تنصب حول الكعبة ، يهلّ عليها ، ويذبح .

ويجيء تعريف آخر بأنها : « حجارة منصوبة حول حوض » والفراغات بين هذه الأحجار المنصوبة من طين اللبن . إن هذا النوع من البنـــاء شائع في الجزيرة العربية ، ومن الشرح سيدرك بسهولة أن المحراب بمعنى النصائب يجـــيء قريباً جـــداً من الاستعمال الحضرمي ، والنصبة : تعني أيضاً سارية ، أو عموداً .

إن ربط الضحية بالمحراب هو تذكير بتقديم الأضاحي ، عند الأعمدة ومن أجلها ، أو عند الحجارة . وهذا يشكّل كذلك جزءاً من شعيرة قديمة عن العيد مازالت حية حتّى الآن في حضرموت ، وسيأتي وصفها بتفصيل تام في دراسة على وشك الظهور في هذا الموضوع .

إن الصورة الشعرية الدائمة هي الدمية في المحراب ، وهي على ما يظهر « كليشة » لتعبير شعري عام شائع في الجزيرة العربية . وإضافة إلى ما أقتبس من « التاج » ، هناك دمية الأعشى : « دمية في محراب تدمر » . يقول عمرو بن أبي ربيعة :

دميـــة عنـــد راهب ذي اجتهـــاد ‏ ‏ ‏ ‏ صَـــوّروها في جانب المحـــراب(٣)

إني أوثر هنا أن آخذ بنظر الاعتبار كل المعاني على أنها عرضية لمعنى المحراب الأساسي ، مثل صف من الأعمـــدة مع المسافات التي تتخلله ، فمن هذا المعنى الأساسي يمكن للمرء أن يرجع المحراب على أنه « كوةّ » ولـكن الأرجح أنه جانب من صومعة المتعبد ، أو جانب المذبح ، بمعنى حائط موصول بأعمدة ، أو بفهم بسيط للبيت ، فإنه ينسب للأعمدة مع الدمية المنصوبة بينها . هذا النمط من التزيين كان تقليداً فنياً شائعاً جداً في جنوب الجزيرة

(١) المصدر السابق ص ٢٢٢ .

(٢) تاج العروس ، الطبعة السابقة ١ / ٤٨٦ .

(٣) المبرد : الكامل ، ط أحمد محمد شاكر ، القاهرة ٣٧ – ١٩٥٦ ، ٢ / ٦٠٧ . عبارة « في جانب » قابلة لأكثر من تفسير ، قارن طبعة رايت ص ٣٧٨ .

نفسها قبـــل الإسلام ، كمـــا نعرف من نقش هومبرجتكون Hombrechtikon الذي نشره البروفيسور هونيمان Honeyman ، الأصل الذي يظن أن يكون إقليم مأرب(١) .

ذلك أن الدمية كانت رمزاً فضلاً عن كونها صورة ، يمكن أن تتضح من بيت لعدي ابن زيد (٢) :

كدمي العـــاج في المحاريب .

ولنعد إلى تدمر أيضاً ، إنها بالطبع غنية بصفوف من الأعمـــدة ، سواء أكانت أعمدتها مسقوفة أم الرواق المهيب لمعبد الشمس نفسه .

يقتبس لاندبيرك Landberg (٣) بيتـــاً من ديوان « قيس بن الخطيم » حيث يصف اليهود — وقد جلبوا البهار والطيب — .

إلى قبـــة دوين السماء بمحـــرابها .

ولعلي أميل إلى أن أرجع هذه إلى : « خيمة مع محرابها » ففي الواقع يمكن أن يقال : أن الخيمـــة البـــدوية تشبه القبـــة ، وربما يكون هذا مناسباً كما تأكد من رسوم كولونيل دكسون Colonel Dickson (٤) ، أن شكل الخيمـــة الذي وضحه بالصـــور يجب أن يكون في أقصى الجنوب من بيحان ، أما محراب « قيس بن الخطيم » فإني أفهمه على أنه جهة مفتوحة من الخيمة مع صف من أعمدة الخيمـــة ، وقد يفـــكر أحد بعد ذلك في أصنـــاف البضائع المنتشرة خارجاً أمام الخيمة ، ولهذا فإن « إلى » استعملت لتعبر عن موقفهم ، بينما صاحب البضائع يجلس في الظل فعلاً داخل الخيمـــة .

لقـــد ناقش لاندبيرك Landberg كذلك فرضية رودوكناكس Rhodokanakis

(١) نقش هومبرجتكون ، العراق ١٦ ، ١ ، ١٩٥٤ ، ص ٢٣ — ٢٨ . ربما كان هذا النقش يمثل رقصة عبد الهيكل في بعض الاحتفالات الدينية ، وذكرا ناذراً نفسه للهيـــكل وقد عرى نفسه في نشوة دينيـــة .

(٢) الكامل ، المذكور أعلاه ٢ / ٧٦٧ ، ط رايت ص ٤٦٠ .

(٣) Gloss. dat., 394.

(٤) دكسون ، عرب الصحراء ، لندن ١٩٤٩ ، ٦٨—٦٩ . القماش الناتئ فوق قطب الخيمة من الممكن أن يقارن مع القبة ، أو العكس بالعكس ، أن القبة ينبغي أن تقارن بالجزء الناتئ من الخيمة .

في ربط المحراب بالحربة ، ومع ذلك فإني لا أستطيع أن أشعر بأن المحراب متصل مباشرة بسنة الرسول في استعمال الحربة كسترة ، كما هو مدون في الأحاديث التي استشهد بها البخاري وآخرون .

ربما كان استعمال الحربة في الأمصار المفتوحة لتعيين الوقت أو الاتجاه بالنسبة للشمس ، فإن أحداً يتحدث اليوم بكل اعتداد عن ارتفاع الشمس قدر رمح ، ومن ناحية أخرى ففي البلاد الإسلامية يمكن أن يحتفظ بأثر العبادة حيث يضحى عند الأعمدة والحجارة المنصوبة ، مجـرداً من أي أثر أو مغزى إسلامي . إن ربط المحراب بالحربة شيء جذاب من مختلف الوجوه ، لان السهم ما زال مستعملاً ليـدل عـلى العمود في حضرموت ، وبالتأكيد فإن الخيمة البدوية الواطئة الطويلة تعلق على سلسلة من الأعمدة ليست بعيـدة جـداً من صف الحراب .

وحتى الآن لم أناقش الفرضيات التي اقترحها محمود الغول (١) . ربما كانت كلمة « تحربت » ــ المذكورة آنفا ــ الجاهلية ، مشتقة من صيغة من الجذر « حرب » وأريد المعنى الأساسي في نصب الحراب أو صف الحراب ، وبعد ، فيمكن أن يطلق على صف الأعمدة أو البناء الذي كانوا يستعملونه .

يقترح البروفيسور بيستون Beeston ــ إضافة إلى ذلك ــ أن الكلمة يمكـن أن تكون مساوية جداً للشكل « تحرابة » (٢) ، ومن الممكن أيضاً أن تكون هناك علاقة اشتقاق صرفي مع كلمة « رحبة » المستعملة في ساحة المسجد (٣) أو البيت .

المحـراب والقبلـة :

بقي أن نوضح الطريقة التي بها أصبح المحراب مشتركاً مع كوّة الصلاة : المحراب على ما يظهر يمكن أن يعني : مكان جلوس ذو أعمدة ، مفتوحاً من جانب واحد ، مسلطاً عليه شيء بارز فوق مستوى الأرض الاعتيادية ، أينما كان حالياً وصف على أنه مرتفع

(١) انظر ص ٦ هامش ١ .

(٢) الملاحظة السابقة نفسها .

(٣) تاج العروس ، يشير إلى علي وهو جالس في رحبة مسجد الكوفة ، وهي صحنه ، قارن ابن سمورة : طبقات فقهاء اليمن ، ط فؤاد السيد ، القاهرة ١٩٥٧ ص ٣٦ .

إني أميل إلى الظن بأنه يماثل نوعاً من الرواق ذى الأعمدة ، وهو شائع جداً في البيوت الحضرمية الكبيرة ، يتقدم الدور العلوي ، أو على السقف ، مكوّناً جانباً واحداً من فناء صغير. هذا البناء الذي يجب أن يكون مألوفاً لكل زوار القطر ، ويمكن أن يرى مثال لذلك في قصر السلطان السابق على في قطن ، مع أن هذا ربما لم يكن أكثر تميزاً (١) .

يقارن لاندبيرك Landberg المحراب بـ « ليوان » دمشق ، وفي تدمر Palmyra منذ سنوات قليلة سعيدة مضت ، جلست في بيت بدوي يشبه تماماً الليوان ، ولكنه لم يكن ذا أعمدة . إن بيتاً (٢) من الشعر القديم يعزز هذا المشهد :

كعقيلة الدر استضاء بها . محراب عرش عزيزها العجم

إن المرء ليتذكر حالاً المدائن Ctesiphon .

إن العربي العادي مهما كان ، لا يستطيع أن يبذل الكثير في بناء مشيّد ، وبدلاً من ترف مثل محراب – ليوان ، فإنه يقنع عادة أن يجلس في ظل بيته ، ويقضي الأُمسية على دكته . إن محاريب قدماء الأرستوقراطيين العرب ربما كانت جيدة في التنويه بالمباني المطلة على المناظر الرائعة ، والأروقة ذوات الأعمدة في مدخلها ، مع تلك القصور ذوات السقوف المتوجة ، كذلك حين يتحدث « ابن هشام » « وأبو نواس » (٣) عن عطر – مسك – محاريب صنعاء (٤) فإن حجر الاستقبال والأروقة تكون مقصودة . يقتبس ابن المجاور (٥) قول ابن دريد :

واحتل من غمدان محراب الدماء

من الصعوبة أن يفسر البيت حرفياً كما فعلت : « محراب الدماء » هو بلا شك المكان المحبب الذي اعتادت النساء جميعهن أن يلتقين فيه . غالباً ما يكون جناحهن من البيت في

(١) D. van Meulen, Aden to the Hadramaut, London, 1947, illustration, No. 61.

(٢) المفضليات ، ط سير جيمس لايل . أوكسفورد ، ١٩٢١ ، ص ٢١٣ . الترجمة ، أوكسفورد ١٩١٨ ص ٧٥.

(٣) مقتبس من قاموس داطينوس ، ٣٩٥ .

(٤) قارن غليوم : حياة محمد ١٩٥٥ ، ٣٢ .

(٥) ابن المجاور ، المصدر السابق ٢ / ١٨٢ .

قصور الأُسر الارستوقراطية في الطابق العلوي ، مع مدخل إلى جناحهن الخاص من الطابق العلوي الذي بلا شك هو محرابهن . إن الإشارة إلى المسك قد تكون إشارة غير مباشرة إلى النساء ، لأنه مما يسترعي الانتباه أن تكون الإشارة إلى المحراب أحياناً مرتبطة بذكر العطر ، ومن المحتمل كذلك في الأقل أن تكون الإشارة إلى ولع اليمنيين بالعطور والبخور ، ففي الطوابق العليا والأجزاء الأُخرى من البيت غالباً ما ترى مجامر البخور موضوعة مصادفة .

لقد أظهر راثجنس وفون وسمن Rathjens and von Wissmann (١) إعادة بناء ضريح حقة Hugga في اليمن الأعلى (الشكل ٢) : إنه يتكون من ساحة ، محاطة من جميع جوانبها برواق ذي أعمدة ، مع قاعة تشبه – في قليل أو كثير – نظام الحمام الحضرمي نفسه ، أمام هذا الحمام – الذي كان فيما قبل الإسلام – رواقاً ذا أعمدة ، مرتفعا قليلاً فوق الساحة ، حيث ينتهي بممر من مجموعة متواصلة من درجات السلم . وهذا متفق تماماً مع الوصف الذي جاء عن « عروة بن مسعود » في قطعة مقتبسة من التاج المذكور سابقاً – عن أداء الأذان .

يجب أن يلاحظ بأن رسم ضريح الحُقّة ، هو رسم مسجد النبي ﷺ في المدينة (٢) ، ورسوم المساجد الإسلامية الأولى ، كما أظهرها سوفاجيه (٣) ، وهي مطابقة أساساً مع المسجد الحضرمي التقليدي ، أعني ساحة مع جزء ذي أعمدة للصلاة في جهة القبلة . وينبغي أن يقارن هذا مرة أُخرى مع رسم الجامع الأكبر في صنعاء ، والمعروف أنه كان قد بنى في زمن النبي ﷺ (٤) .

والنتيجة بإيجاز : أن المعنى الأصلي للمحراب هو صف من الأعمدة .

---

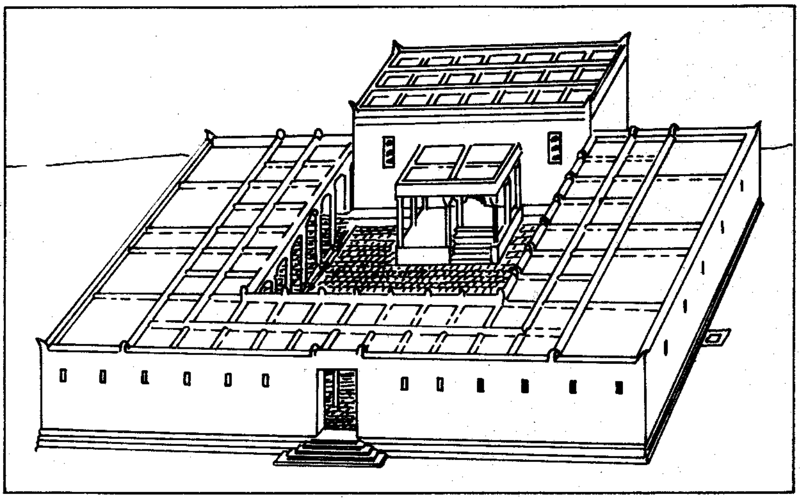
(١) 'Vorislamische Altertumer', Sudarabien—Reise, Hamburg, 1932, 11, 65.

(٢) سوفاجيه ، قارن السابق ص ٩٤ « خطط القرن الخامس عشر » ٩٠ .

(٣) قارن السابق ص ١٠٩ .

(٤) انظر الخريطة التي وضعها راثجنس وفون وسمن ، ملحقة بمصورات هوج سكوت Hugh Scott « في أعلى اليمن » لندن ١٩٤٢ ص ١٢٧ . ابن رسته ، كتاب الأعلاق النفسية ط . دى غويه ، ليدن ١٨٩٢ ٧ / ١١٠ ، يخبر بأنه كان قد بنى قبل الإسلام ، في موضع ضريح – كما يظن – وأن هذا المسجد الجامع كان قد شيد بأمر من حواري الله "Apostle of God" قرب جدران صنعاء ، مقابل غمدان ، من الصخر والجص في موضع المحراب قبر من قبور الأنبياء .

وكان يطلب في إنشاء الأبنية ــ وحتّى قبل الإسلام ـ أن تشتمل على صفوف من الأعمدة راسخة ، مشيدة على قاعدة مربعة ، مثل هيئة القلاع والقصور ، تكون متماثلة ومستوية مع بعضها . لقد اقترح بأنه خلال العصر الأموي ــ بينما الضريح في حُقَّة (*) في اليمن وفق راثجنس وفون وسمن ــ لا يرى في السطح مجرى تصريف المياه ، لكن من المرجح أن المزراب ينبغي أن يكون مجهّزاً . يستذكر معانيها الأُخرى ــ فإنه كان الاسم الذي أطلق على المقصورة حيث أعطى حالاً هيئة معينة في الخريطة تجاه حائط القبلة ، لكن من المحتمل أن المحراب كان فيه من قبل شيء من فكرة المقصورة .



شكل (٢)
(ضريح حقـه)

إني أشعر بميل إلى أن أرى في تطوره الأخير في كلمة « كوة القبلة » اشتقاقاً مباشراً من مغزاه الأساسي ، على أنه صف من الأعمدة ، لأن المخطط يظهر الأعمدة في جدار القبلة

(*) حقة همدان ، بالقاف : قرية معروفة في الناحية الشمالية من صنعاء ، على مسافة خمسة وعشرين كيلو متراً تقريباً ، وجرت فيها منذ خمسين عاماً حفريات أثرية قام بها العالمان الألمانيان كارل وايشجنس وفون فسمان سنة ٣١ – ١٩٣٢ ، وأبحاثهما عنها منشورة في الجزء الثاني من كتابهما المكون من ثلاثة مجلدات باللغة الألمانية .
Vor Islamische Altertumer Von Carl Rathjens und Hermann Von Wissmann, Band 2.

أفادني بهذه المعلومة مشكوراً أخي الباحث الأستاذ / إسماعيل علي الأكوع مدير الهيئة العامة للآثار ودور الكتب في صنعاء . « المترجم »

من مسجد النبي ﷺ ، لكن ربما يمكن أن يتصور تماماً أن معنى الاسم الأخير قد تطور من قربه من المحراب بمعنى مقصورة موقف الإمام .

وكتذييل أود أن أقتبس قطعة من شهادة غير مباشرة حيث تبدو أنها تشير إلى أن المحراب بمعنى المقصورة كان مستعملاً من قبل « المهدية » في السودان . إن الترجمة الإنكليزية لمذكرات سلتين (Slatin's memoirs) (١) تشير إلى الصلوات اليومية الخمس ، فهو يقرر أن : « لكل تلك الأوقات ، الخليفة يحضر في محرابه ، حيث يقوم على الفور أمام صفوف المؤمنين : إنه بناء على هيئة مربع ، مؤلف من سلسلة من الأعمدة مرتبط بأجزاء حديدية مكشوفة ، ومن خلاله يستطيع أن يرى كل ما يجري حوله » .

ملاحظة إضافية :

وفضلاً عن ذلك ، فإن « محمود الغول » قد نبهني إلى فقرة في « المحلّى » لعلي بن أحمد ابن حزم « ط القاهرة ١٣٤٨ هـ ، ٤ / ٣٣٩ » حيث يقرر : أن المحاريب هي بدع ليست معروفة لدى النبي ﷺ (٢) .

ويظهر من النص أنه يفهم « المحراب » على أنه شيء يشبه المقصورة (*) .

(*) نشر هذا البحث في : مجلة الدراسات الشرقية الأفريقية لجامعة لندن المجلد ٢٢ سنة ١٩٥٩ ص٤٣٩ – ٤٥٣
R. B. Serjeant : MIHRAB
Bulletin of School of Oriental and African Studies, University of London. Volume XXII 1959 PP. 439 — 453.

(١) رودولف سي . سلتين ، « النار والسيف في السودان » ترجمة ف. ر. ونكيت F. R. Wingate لندن ١٨٩٧ ص ٣٢٠ . إنها تبدو وكأنها « كوة » هو بالأحرى تفسير خاطئ غير بارع من المترجم عن الذي وصفه سلتين إنه بوضوح ليس كوة محراب ، ولكنه نوع من المقصورة .

(٢) المسألة رقم ٤٩٧ – المحلى لابن حزم حـ ٤ ، ص ٣٣٩ ط القاهرة سنة ١٣٨٧ هـ .